قصة العدد · حقّنا في الحزن

جاءت هذه المرّة بلا نصيحة

قصة مستوحاة من مقال الأستاذة هدى بركات
«حقّنا في الحزن: نحو تعافٍ بلا ضغوط أو أحكام»



حكاية عن الفقد، وعن صديقة تعلّمت أن تبقى

المشهد الأول

ضحكة أربكتها

في الصباح الذي ضحكت فيه أمينة للمرة الأولى منذ وفاة أمها، وضعت يدها على فمها كأنها ارتكبت خطأ.

كانت ابنتها تقلّد زبونة سألت إن كان بالإمكان توسيع قفطانها «قليلًا فقط»، ثم راحت تشير بيديها إلى مسافة تتسع لطفل. خرجت الضحكة من أمينة قبل أن تنتبه. وبعدها مباشرة، وقعت عيناها على الفنجان ذي الحافة الزرقاء، فوق الرف.

كانت أمها تشرب فيه الشاي كل مساء، وتقول إن الفناجين الجديدة جميلة، لكن هذا يعرف مقدار السكر الذي تحبه.

سكتت أمينة. أعادت القماش تحت الإبرة، وضغطت الدوّاسة بقوة حتى انقطع الخيط.

سألتها ابنتها:

> «هل قلت شيئًا أزعجك؟»

هزّت رأسها، ولم تجد جوابًا يشرح كيف يمكن لضحكة صغيرة أن تفتح بابًا للبكاء.

عادت إلى الخياطة بعد أسبوع من الوفاة. لم يكن الكراء ينتظر أن تنام جيدًا، ولا كانت الزبونات تعرفن لماذا تعيد قياس الكم نفسه ثلاث مرات.

قالت لها إحداهن، حين رأتها تعمل: «الحمد لله، بدأتِ تنسين».

ابتسمت أمينة ابتسامة قصيرة. كانت قد تعلّمت أن قول «الحمد لله» ينهي أحاديث لا تملك طاقة لإكمالها.

لكنها في المساء بقيت طويلًا أمام لائحة الطلبات. كتبت موعد تسليم فستان، ثم اكتشفت أنها كتبت، في خانة اسم الزبونة، اسم أمها.

المشهد الثاني

وصفة لا تناسب أحدًا

كانت نوال تحب صديقتها، وتخاف عليها، وتصل دائمًا ومعها شيء ينبغي لأمينة أن تفعله.

مرة اقترحت المشي كل صباح، ومرة تغيير ترتيب البيت، ومرة أرسلت تسجيلًا عن تحويل الألم إلى قوة. ثم وجدت إعلانًا لدورة تعد المشاركين ببداية جديدة خلال أسابيع، فأرسلته بحماسة.

فتحت أمينة الرابط. قرأت شهادات أشخاص قالوا إن حياتهم تغيرت، ونظرت إلى ثمن الاشتراك، ثم إلى فاتورة الكهرباء قرب الماكينة. أغلقت الهاتف.

حين اتصلت نوال تسألها إن كانت قد سجلت، أجابت:

> «لم أفعل».

> «لكنك تحتاجين إلى مساعدة نفسك. أمك لا تريد أن تراك هكذا».

نظرت أمينة إلى انعكاس وجهها في زجاج النافذة.

> «وكيف تعرفين كيف تريد أن تراني؟»

لم تقصد أن تقسو، لكنها سمعت صوتها يرتفع للمرة الأولى.

ساد صمت ثقيل. ثم قالت، بصوت أخفض:

> «أعرف أنك تحبينني. لكنني صرت أتعب قبل زيارتك، لأنني أفكر فيما سأقوله حين تسألين: هل أصبحتِ أفضل؟ أحيانًا أريد أن أشرب معك الشاي فقط».

أغلقت نوال المكالمة وهي مجروحة. كادت تكتب: «أنا لا أريد إلا مصلحتك»، ثم مسحت العبارة.

في تلك الليلة، تذكرت كم مرة قالت لأمينة: «يجب». حاولت أن تتذكر آخر مرة سألتها فيها ماذا تحتاج، فلم تتذكر.

المشهد الثالث

كيس عند الباب

في اليوم التالي، طرقت نوال الباب وفي يدها كيس خضر وخبز. لم تقل إن الهواء جميل، ولا إن الخروج سيغيّر نفسيتها. وضعت الكيس في المطبخ وسألت:

«هل يناسبك أن أبقى قليلًا؟»

أومأت أمينة.

وقفت نوال عند طاولة الخياطة. كانت أطراف قفطان أخضر مملوءة بغرز مؤقتة.

«هل أستطيع نزع هذه الخيوط؟ كنت أجيد ذلك قبل أن تسرقي مني زبوناتي».

ابتسمت أمينة، وناولتها المقص الصغير.

جلستا تعملان. في الخارج صاح بائع السمك، ومر طفل يجر حقيبته على الدرج. قالت أمينة فجأة:

«أكثر ما يوجعني أنني لم أعد أستطيع أن أسألها: هل أكلتِ؟»

رفعت نوال عينيها. كانت العبارة التي حضرت على لسانها جاهزة: «ادعي لها». لكنها تركت لأمينة وقتًا تكمل فيه.

«أطبخ أحيانًا أكثر مما نحتاج. أنتبه متأخرة إلى أنني ما زلت أحسب حصتها».

وضعت نوال المقص. قالت: «لا بد أن مكانها يبدو في أشياء كثيرة».

بدأت أمينة تحكي عن أمها: كيف كانت تخبئ اللوز عن الأحفاد ثم تفضح مخبأها، وكيف تخطئ في أسماء الممثلات بثقة عجيبة.

ضحكتا. ثم بكت أمينة. لم تتغير جلسة نوال، ولم تنظر إلى الساعة. دفعت علبة المناديل نحو صديقتها، وبقيت.

المشهد الرابع

ما بقي على الرف



بعد ذلك، لم تصبح الأيام سهلة دفعة واحدة. تأخرت أمينة في تسليم بعض الطلبات، وظلت تستيقظ أحيانًا وفي صدرها ثقل لا تعرف كيف تبدأ معه النهار.

لكن نوال أخذت تسأل قبل أن تأتي: «هل تحتاجين صحبة، أم شيئًا من السوق، أم نؤجل الزيارة؟» وصارت أمينة تجيب بما تحتاجه، بدل أن تقول إنها بخير دائمًا.

وفي مساء تعبت فيه من قلة النوم، قالت إنها تريد التحدث إلى مختصة. عرضت نوال أن ترافقها، وتركت لها اختيار الموعد.

المشهد الرابع · تتمة

الفنجان الذي بقي

ذات خميس، جاءت نوال فوجدت على الطاولة فستانًا طفوليًا أصفر. كانت أمينة تثبت على صدره وردة صغيرة.

قالت: «انظري، لو رأته أمي لقالت إن الوردة كبيرة، ثم طلبت واحدة أكبر لحفيدتها».

ضحكت، ولم تضع يدها هذه المرة على فمها.

بعد قليل، قالت إنها تشتاق إليها. لم تر نوال تناقضًا بين الجملتين.

دخلت الابنة تحمل صينية الشاي، وسألت وهي تنظر إلى الفنجان القديم:

> «هل نضع فنجان جدتي مع الفناجين الأخرى؟»

تأملت أمينة الرف. لم يكن مزارًا للحزن، ولا كان امتحانًا لقدرتها على التجاوز. كان فنجانًا تحبه، ولم ترغب في نقله ذلك المساء.

> «نتركه هنا الآن»، قالت.

ثم أفسحت مكانًا لصديقتها قرب الطاولة. سكبت الشاي، وواصلت الحكاية التي لم تكملها عن أمها.

لم تسألها نوال متى ستصبح بخير. كانت منشغلة بالإصغاء.

قصة متخيّلة مستوحاة من أفكار المقال؛ لا تروي واقعة حقيقية.